قرية طيبة

بقلم : جمال ربيع

فى تمام الثامنة صباحا استقل القطار من (طنطا) الى القاهرة ..

وفى تمام التاسعة والثلث استقل عربة راحت تجرى به وتتلوى فى شوارع كثيرة متقاطعة تغص بالناس وبالحركة .. وأخيرا استقرت به أمام مبنى كبير .. كبير جدا ... وقال له السائق .. « وصلنا » وصعد الى المبنى .. الى الطابق العاشر ثم نزل .

وبعد خمس دقائق عاد يستقل عربة أخرى انطلقت به فى سرعة جنونية الى المكان الذى يقصده بضاحية الهرم وتوقف أمام المكان المنشود ونزل وعلى وجهه ابتسامة رضا طافت على شفتيه صاعدة من أغوار نفسه ..

ولكن.. بعد عشر دقائق عاد مسرعا يكاد يعدو ليشير الى عربة ثالثة حملته فى بطء ضايقه كثيرا الى محطة مصر.. وهناك انتظر ساعة ونصف .. حتى حان موعد القطار المسافر الى.. طنطا..

واستقله ولأول مرة فى يومه هذا منذ بدأ صباحه وبدأت معه هذه الرحلة السريعة المتقطعة المملة يحس نفسه تهدأ وتستريح .. ومط شفتيه .. وفرك يديه .. وتأوه ..

وانطلق القطار .. ونزل بسمعه الى عجلاته وراح يصغى لصوت احتكاكها بالقضبان .. واحس أنه يستعذب هذا الصوت .. وأخيرا رفع سمعه عن القضبان عندما لاحقت عيناه منظر الحقول الخضراء فى اتجاه يعاكس اتجاه القاطرة .. ووجد نفسه يبتسم .. الأمل الذى قتلته الحقيقة ، والساعات التى ضاعت من عمره ولم تخلف غير الخيبة والندم .. والنقود التى تسلمها منه سائقو العربات وغيرهم ..

والفشل الذى لف شعوره .. بعد كل هذا تبتسم ؟؟ وطوت نفسه ابتسامتها حتى لا تثيره وتتركه يواجه كل ما جرى له فى يومه الكئيب ... وعض على شفتيه يعتصر الالم فوقهما . وتمتم .. لا حول ولا قوة الا بالله » .. لماذا فعل أبوه كل هذا ؟ لماذا حرم نفسه وأذاقهم الحرمان ؟

ليته لم يفعل .. من قال بأن الموت أمر يؤسف له . حمدا لله أن أمر بقبض روحه ولم يمد له حبال العمر فربما كانت أوصلته الى القاهرة ليرى ما رأى ليرى نتيجة كفاحه وحرمانه نفسه من كل شيء .. وحرمان أحبائه الآخرين.. حمدا لله أنه مات ، ألف حمد .. ألف

الف حمد ·· عدد حصى الارض ونجوم السماء ·

واشعل سيجارته بعناية ، وجذب منها نفسا عميقا ·· ثم أطلق الدخان من فمه ، وراح يغمس نظره فى حلقاته وهى تدور حول بعضها تلتف وتتقارب وتتباعد ·· ثم تتلاشى ·وعاد يتبادل الهمس مع نفسه ··

المتعلم الوحيد فى عائلتنا يحيا هذه الحياة ؟ يالسخرية القدر ·· وأمه ·· ماذا سيقول لها ؟ بعد ساعات سيدخل عليها ليواجه نظراتها المتسائلة عن سر عودته فى نفس اليوم وهو الذى ازمع الاقامة بالقاهرة مدة يومين كاملين ·· اه ··سيقول لها انه لم يجده ، سافر الى أسوان فى عمل من اعمال الشركة · وتتكور المرارة على شفتيه فى ذلة قاسيه ·· أنه يذكر جيدا حديث أمه معه ·· يذكره بالحرف الواحد ·· يذكرأمنيتها ··عشرة أبناء على شاكلةحمدى لتباهى بهم القرية ··

ويذكر حديثها·· ويذكر انه آلمه كثيرا ولكنه طوى آلامه فى رضى وهو يرى الغبطة تكسووجهها الاسمر اشراقا وهى تتحدث عن ابنها حمدى ·· عن اخيه المهندس الكبير ··

ودارت صورة أخيه أمامعينيهاكثرمن دورة ·· تترنح كما رآه من ساعة ·· واوقفها عن الدوران وثبت وضعها امام عينيه ورشقها بسؤال دار فى رأسه وتركز فى عينيه ·

ماذا قدمت لامك ؟ .. لآمالها ؟ .. لحبها ؟ لحياتها ؟ النسيان الاهمال عدم المبالاة بها ؟ ·· ورمى الصورة التىعادت تترنح من جديد بنظرة يائسة حزينة فيها الكثير من الاحتقار ·· وأطرق ·· وهز رأسه يطرد منه صورة أخيه ·· كانتنفسه تحدثه لحظتهابحقيقة شعور أخيه نحوهم · انهم عبء معنوى يرهق مركزه الادبى ·· ليتهم لم يكونو له أهلا · لابد وان نفسأخيه تحدثه بهذه الامنية وهى ترى صاحبها مرموقا ·· مهابا ·· ينادى بالقاب التفخيم ·· نعم ·· هذا حق كما راه اليوم بعينيه مستسلما لهذا الشعور عندما دخل عليه داره ·· والفرحة تنفخ صدره ·· ينتظر ساعة يلقى أخاه ، ويحتضنه ويقبله ، وينسى فى ترحابه كل مابنفسه من أحاسيس صنعتها ظروفه ·· ولكن اخاه لم يفعل · كان ، كمن يلقى غريبا يقصده فى حاجة تضيق بها نفسه ويضطر الىمجاملته · وذهب ما بصدره من انتفاخ ، واحسه ينكمش ، وينكمش حتى ظنه سيخرج من ظهره · احس هذا ساعة انناداى اخاه المهندس خادمه النوبى وقال له ··

« قدم كوبا من عصير الليمون لسعيد ··

لم يقل أخى !··

وجذب ناظريه من دوامة الخيالات الباهتة الى ملابسه ·· لم تكن ملابسه حقيرة لهذه الدرجة ·· انه يرتدى قميصا رخيصا حقا ولكنه نظيف ·· وسرواله لم يمض على استعماله أكثر من عام ونصف ولا يعتقد أن الخادم لاحظ ذهاب لونه عند الركبتين فلا يبدو ذهاب اللون واضحا تماما ليراه الخادم ويلحظه ولكن لابد أن أخاه رآه ولهذا أنكر أخوته ولاقاه ببرود وخجل من

تقديمه الى خادمه .. وعاد بناظريه الى دوامة الخيالات .. وجذب منها صورا مختلطة لطفولة أخيه .. كان انطوائيا لا يرضى عن شيء .. وكان له ركن خاص ينزوى فيه لا يكلم أحدا .. وكان ينظر الى الأشياء نظرات طويلة أدهشت والده .. وأقلقت أمه .. حتى أنه كان لا يقبل فى صباه فى كتاب القرية أن يتفوق عليه أحد وان حدث وأخطأ فى شيء من دروسه يعود باكيا الى بيته يعض على شفتيه ولا يبوح لأحد بما يبكيه ..

وعندما أرسله والده الى المدرسة .. ثقلت قدماه من يومها فكان يسير فى بطء ينظر عن يمينه وعن شماله فى كبرياء وغطرسة .. لا ينظر أمامه أبدا .. كان دائما رافع الرأس .

وعندما أظهر تقدمه فى الدراسة وتفوقه على أقرانه ، قرر أبوه الانفاق عليه حتى يتم دراسته الجامعية ، وفى قلبه حلم جميل .. حلم لكى يحققه حرمه هو من اتمام دراسته مكتفيا بحصوله على الابتدائية ووظفه كاتبا بمصلحة المساحة بطنطا مع أنه كان لا بأس فى دراسته .

والآن أصبح حمدى مهندسا .. بين يديه المال .. والمركز .. يحيط به احترام واعجاب الجميع .. كل هذا أنساه أمه .. نعم نسيها .. ثلاثة أشهر كاملة لم يرسل اليها كلمة مكتوبة يسأل فيها عن أحوالها .. وهى طوال الثلاثة أشهر هذه .. طوال ساعاتها تسأل عن سبب انقطاع مراسلاته القليلة مرة بلسانها .. ومرة بعينيها .. وثالثة بقلقها البادى فى كل تصرفاتها .. وتهيب به أن يكتب الى أخيه .. وكتب له .. خمسة عشر خطابا .. ولم يأته الرد .. وأخيرا من أحد معارفهم علم أن أخاه نقل الى ادارة الشركة بالقاهرة .. فأسرع يطفىء قلق أمه بزيارته لاخيه .. وكان ما كان .. الكأس فى يده والنظرة المتعالية فى عينيه .. وضيقه الواضح على قسمات نفسه .

كان شخصا آخر .. لا يمكن أن يكون نشأ فى بيتهم وشب فى بيتهم .. انه شيء آخر .. شيء كبير غريب ، شيء من القاهرة وليس من قريتهم ..

وزفر آلامه من صدره دفعة واحدة .. وتمتم ..

« لم يقدمنى الى الخادم .. الحمد لله أن أحدا من أصدقائه لم يكن موجودا »

وتهادى القطار فى سيره .. ثم توقف ومازال « سعيد » فى اطراقته وشروده .. ولكن نداء أيقظه وأعاد اليه انتباهه .

« سمسمية .. حمصية .. حلاوة السيد » ..

وانتفض متناولا حقيبته ، وترك العربة الى طوار المحطة ونفسه تهمس اليه بأنها احدى كرامات السيد البدوى .. فلولا أن سمع نداءات الباعة لظل فى شروده ، وقام به القطار وسار به الى نهايته الى الاسكندرية .. وهو لا يعرف بالاسكندرية أحدا .. والجنيه الذى يعمر جيبه ما كان ليكفيه مبيتا واقامة بالاسكندرية وعودة الى طنطا فى الصباح .. وعاد يتمتم .. « الحمد لله

.. كراماتك يا بدوى ، ورفع يده يقبلها شاكرا حامدا .. وانطلق يعـــدو الى ميدان المحطة فاجتازه ، ثم الى خارجها حيث تقف عربات الأجـــرة .. ولحق بآخر عربة تقوم الى خط سيرها مـــارة بقريتهم « كتامة » وحمد الله .. وعاد يذكر كرامات السيد .. وتوجه بعينيه الى مئذنته وهمس .

ـ سأزورك يا بدوى .. سأزورك لأشكرك .

وسارت العـــربة تتلوى على الطريق الزراعى تقفز فوق الحفر وكتل الطمى الجافة الصلبة .. وعاد خياله يسبقه الى أمه .. وحاول أن ينفض عن نفسه آثار زيارته لأخيه حتى يلقاها وليس على وجهه ما ينم عن ضيقه .. لو أنه فشل فى تظاهره لامتلأ قلبهـــا كمدا يهدد حضرة المهندس الغالى الذى تفاخر به أهل القرية جميعا وتتمنى لو كان لها مثله عشرة .

وابتسم فى حسرة ومرارة .. وهز رأسه ينفض آلامه وهمس لطيفها الذى تراءى له .

(مهـــندس واحـــد فيـــه الكفاية « يا أمى ») .

وغرق فى آلامه .

وصاح السائق :

ـ كتامة .

وتناول حقيبته من بين ســـاقيه .. وفتح البـــاب ، وغادر العـــربة ثم دار حولهـــا وقدم الى الســـائق أجره ، ثم انطلق فى خطوات بطيئة يشق الطريق المظلم الى قريته التى ذاب سواد منازلها فى سواد الليل فلم تعد يرى منها غير المشاعل الحمراء الباهتة التى تتراقص تحاول أن تحدد ملامحها الهزيلة .

والتقى به ابن عمه مصطفى عائدا من عمله بالحقل، فسأله مستغربا عودته .

ـ قالت عمتى انك ستبقى بالقاهرة يومين أو ثلاثة .

ورد عليه فى اقتضاب :

ـ اكتفيت بنهار بطوله .

وسأله ابن عمه وقد برقت فى عينيه التماعة اعجاب .

ـ وكيف وجدت الباشمهندس ؟

وأجابه فى هدوء يجرب صوته قبل أن يلقى أمه .

ـ بخير .. لقد استدعى فى مهمـــة بأسوان ورافقته حتى ركب القطار .. مسكين أخى حمدى كل وقته لعمله .

وحدق النظر فى وجه ابن عمه ليرى ان كانت نبراته كشفت شيئا من ضيقه وألمه ، واطمأن عندما ســـمع ابن عمه يقول وهو يجذب جاموستة الى جانب الطريق .

ـ من زمن لم نر الباشمهندس .. ربما نسى بلده وأهله ؟ .

فأجابه « سعيد » بنفس الصـــوت الهادىء .

ـ مسئولياته كـــبيرة يا مصطفى .. كان الله فى عونه .

وانطلق الى داره وهو يهمس لنفسه .

« كان الله فى عونه » ..

ولقيه بعض شباب القرية ورجالهـــا

جالسون كعادتهم أمام حانوت القرية يتسامرون ، وسألوه عن الباشمهندس .. وطمأنهم على الباشمهندس وسمع قريبه مختار رضوان يقول بعدان جاوزهم بخطوات ..

« والله يا أولاد وظلـــــع من بيت الصعيدى مهندس ياولاد

وتمتم .. وأطرق برأســـه أسى .. وهمس للظلام ..

« صدقت .. طلع من بيتنا مهندس .. طلع ومارجعش» .

ووجد بوابة منزلهم مفتـــوحة على مصراعيها كالعادة والظلام مستحوذ على اغلب أرجائهـــا ماعدا الدائرة الضيقة التى يترنح فى محيطهـا ضوء سراجهم وفيها رأى خالته « أم على » جالسة .. ولم ير أمه فسأل خالته عنها فهبت فى اضطراب لعودته السريعة وقالت له :

ـ لماذا عدت فى نفس اليوم ؟ خيرا يا « سعيد ..

فقاطعها قائلا ..

ـ أين أمى ؟

فأجابته :

ـ نامت من ساعة .. كيف حـــال الباشمهندس ؟

فقال فى ضيق ..

ـ بخير .. سافر الى أسوان ..

ووضع الحقيبة فوق المصطبة وسألها فى دهشة ..

ـ ولماذا تنام فى مثل هذه الساعة ؟ اننا مازلنا فى أول الليل .

واقتربت الخالة وهمست له :

ـ فاجأتها الحمى بعد سفرك بساعة .. ولم تستطع الوقوف على قدميها ، وسقطت فى صحن الدار وأمسك بخالته من كتفيها وسألها :

ـ كيف حدث هذا ؟

وأطرقت السيدة وقالت .

ـ اطمئن .. لقد دهنت جســـدها بالخل والملح وأحكمت الغطاء حولهـــا والليلة ستعرق وتصبح على خير حال..

ونظرت فى وجهه وسألته .

ـ مالك مصفر الوجه هكذا ؟ ليست أول مرة تمرض فيها والدتك ..

وجاءه صوت أمه يناديه .. فأسرع الى حجرتها يحمل السراج فى يده .. ونظر اليها ممدودة والأغطية تلفها حتى رقبتها فاقترب منها وقال فى لهفة ..

ـ سلامتك يا أمى ..

وراحت تنظر خلفه فاســتدار ينظر الى حيث ركزت عينيهـــا ولم ير غير الظلام .

وأدرك أنها تتوقع أن يدخل عليها الباشمهندس .. وأن يكون قد جـــاء معه ليراها ولم يطق المبيت فى القـاهرة الى الصباح ..

وأعاد اليـــأس نظرة أمـه الى وجهه وابتسمت له فى اعياء وسألته .

ـ أين حمدى ؟ ولماذا عدت فى نفس اليوم ؟

واقتلع ابتسامة من قلبه وضعها على شفتيه ومال عليها يقبلها قائلا ..

ـ كأنك وليس لك غير حمدى ..
لقد سافر الى أسوان فى مأمورية خاصة بالشركة وكان فى غاية الضيق من عدم تمكنه الحضور معى .. كاد يبكى وهو يستقل القطار مضطرا .. ولكنه فى صحة جيدة جدا وأوصانى أن أقبلك..

ومال عليها يقبلها فتناولت يده تقبلها .. وتدعو لهما بالسعادة وجرت دموع الحنان فوق وجهها الشاحب فمد يده يمسح دموعها فضغطتها تسأله ..

ـ أحقا وجدته فى صحة جيدة ؟

فابتسم فى وجهها وقال :

ـ على خير حال ، صحة من حديد .

وعادت تسأله فى لهفة :

ـ وماذا قال لك عنى ؟

وتضاحك قائلا لخالته ..

ـ تصورى الى أى حد تغرم أختك بابنها المدلل .. ماذا قال لك عنى ؟

وابتسمت الأم وأغمضت عينيها .. فجذب الغطاء فوق صدرها وقبل جبينها وانسحب فى هدوء ...

وتقدمته خالته تحمل السراج فوق رأسها وضوؤه يرقص حولهما رقصاته الباهتة الحزينة .. وعليه مر الليل بطوله وثقله وعيناه لم تحتضنهما سنة من النوم . وجاءه صوت الشيخ « أبو الجدايل » يعلنه باقتراب الفجر فقام ينتعل خفيه ، ويمم وجهه الى مسجد القرية ، وقد هدأت نفسه بعض الشىء ، وتوضأ ، ودخل المسجد يهمهم بالدعوات والتوسلات .. وأدرك أنه أول من دخله لصلاة الفجر .

ونظر فى الأركان فرأى أشباحا سوداء نائمة فتقدم منهم وأيقظهم جميعا .. واستقبل القبلة ، وبدأ تسبيحاته ، وتراجعت أوهامه وأحلام الأمس السوداء أمام صوته المرتفع بالتسبيح والحمد .. وبدأ الناس يتوافدون الى المسجد تسبقهم همهماتهم الخاشعة .. وبكى .. بكى ما شاءت له دموعه المخزونة واحلامه المخدوعة .. وحمد للظلام ستر دموعه حتى انتهى من صلاته ، فمد كفيه يمسح وجهه وعاد الى بيته وقد هدأت نفسه ، وسكنت لدغات آلامه ..

وبالقرب من داره سمع خالته تسأل عنه أحد الذين سبقوه فى الخروج من المسجد وسمع الرجل يجيبها بأنه قادم خلفه فأسرع الى خالته عدوا ، وقد استيقظت فى نفسه أحاسيس الرهبة والخوف من المجهول وسألها :

ـ خيرا يا خالة .

فقالت وهى تتقدمه الى غرفة أمه..

ـ لا أدرى .. حاولت أن أوقظها ولكنها لم تجب مع أن أنفاسها تتردد .

وأسرع الى أمه وأشار الى خالته أن تفتح النافذة . ونظر اليها : كان العرق يكسو جسدها كله الشحوب يقبض بيده الصفراء على وجهها ، ومد يده الى رسغها يتحسسه فاذا بنبضات القلب لا تكاد تحس واعترته قشعريرة هزت كيانه وعقدت لسانه .. ولكنه وجد نفسه يتحرك . وانطلق يعدو .. وأمام باب طبيب الوحدة المجمعة وقف يطرقه فى عنف .. وأخيرا ظهر الطبيب أمامه وكان يعرفه فاندفع اليه قائلا :

ـ أمى يا دكتور ·· الحالة غاية فى السوء ·

وأشار اليه الطبيب بالدخول حتى يرتدى ملابسه ·· ووقف يساعده حتى اذا ما انتهيا من ذلك انطلقـــا الى المريضـــة ·· وقال له الطبيب وهمـا يجدان السير ··

ـ طالما نصحتك بعرضها على أخصائى بالقاهرة ·· ولكنك ··

فقاطعه « سعيد »

ـ العين بصيرة واليد قصيرة ··

فالتفت اليـــه الطبيب وقال له فى دهشة ··

ـ الباشمهندس ؟

فعض على شفتيه وأشـــاح بوجهـه وقال :

ـ فى أسوان ··

وعاد الطبيب يسأله :

ـ ولماذا لم يرسـل اليـــك نفقات علاجها ؟

وعاد يعض على شـــفتيه من جديد وقال :

ـ هذه غلطتى ·· لم أشأ أن أزعجه وانتظرت حتى ينتهى من عمله هنـاك ويعود ··

وهز الطبيب رأسه وقال :

ـ الحقيقة انك أخطأت ·· انهـــا مريضة «بالبوالينا» يا أستاذ سعيد ·· مرض مميت ·· وعلى أى حـــال ربنـا موجود ···

وكانا قـــد اقتربا من المنزل فلفهما الصمت ·· ودخل الطبيب عليها وبدأ يفحصها وعلى وجهه قرأ سعيد نتيجة الفحص ·· لم يفعل الطبيب شيئا أكثر من أنه حقنها بمصل أخرجه من حقيبته ·· وقام يغادر الغرفة بعد أن أشار الى سعيد بأن يتبعه ·· وفى صحن دارهم وقف يواجه حكم القـــدر على لســـان الطبيب ···

ـ الحـــالة ســـيئة جدا ··· بل ميئسة ··

قالها الطبيب فى هدوء ··

وعندما وجد سعيد لسانه ســـال الطبيب :

ـ وما العمل ؟

فأشاح الطبيب قائلا :

ـ الله موجود ··

فأمســـك سعيد بذراعه ، وقال له متوسلا وكأنما حيـــاتها بين يدى هذا الطبيب ··

ـ ألا تستطيع أن تقدم اليها شيئا ؟· أى دواء ·· أى شىء ··

وفى اشـــفاق أخرج الطبيب دفتره وخط بضع كلمات عليه وقدم الورقة الى ســـعيد وقال له وهو يحـــكم غلق حقيبته ···

ـ هذا الدواء قد يســـاعدها لأيام قليـــلة ·· أنت رجل ومتعلم ولهـذا صارحتك بالحقيقة ·

فساله سعيد فى حمـاس كمن رأى بريق الأمل وسط ظلمة اليأس ···

ـ وهل أجده بطنطا ؟

فربت الطبيب على كتفه وقال :

ـ اختصارا للوقت عليك أن تسافر الى القـاهرة لتحضر الدواء .. ثمنه جنيهان فقط .

ونظر الطبيب فى ساعة يده واردف قائلا ..

ـ يمكنك أن تستقل قاطرة السادسة والنصف .. انه موعد مناسـب والله معك ..

شد على يده وانصرف مطرقا ...

ووقف سعيد وحده فى صحن الدار يواجه المرض .. والموت .. وآلام نفسـه .. ثم انتفض وأسرع يرتدى قميصـه وسرواله ونادى على خالته وعندما خرجت اليه قال لها ..

ـ لابد من السـفر الى القـاهرة للحصـول على الدواء وليسـت معى نقود ..

وفى هدوء مدت السيدة يدهـا الى صدرها ، وأخرجت لفافة حلت عقدهـا الأربعة ، وسلمته خمسة جنيهات كاملة فتناولها وانطلق ينهب الارض بقدميه الى الطريق الزراعى ليستقل احـدى عربات النقل الى طنطا .. ومنهـا الى القاهرة ..

ودخل على أخيه وبيده الدواء ورآه ممددا فوق اريكة فى حجرة الاستقبال الأنيقة ، وقد أسند رأسه الى وسـادة حريرية حمراء ودلى ذراعه يداعب شيئا ممددا فوق أرض الحجرة ، ويضحك من ملء قلبه الخالى .. واعتدل أخوه عندما رآه يملأ البـاب أمامه وكذلك جمعت الفتاة غلالتها حول جسـدها وقامت حائرة تتصنع الخجل .. وقال له أخوه فى برود ..

ـ أهلا سعيد .. لقد عدت ثانية ..

وتقدم منه وقـد زم شـفتيه .. ووجدتها فتاة الليل فرصـة فانسلت كالفراشة تغادر المكان . وواجه أخوه وقد انقلبت المرارة التى ملأته الى رعشة راحت تعبث بيديه وقال له ...

ـ أمك تموت ..

وضحك حمدى ..

ضحك عاليا وهز رأسه وقال ...

ـ طريقة ساذجة تحملنى بهـا على السفر .. سذاجة أهل القرية ..

ومال على أخيه يهزه .. ثم ابتعد عنه وتمتم ...

ـ مخمور ...

ونظر اليه حمـدى فى سـخرية وقال ...

ـ احقا لم تذق الخمر فى حيـاتك ياسعيد ؟ تذوقها مرة .. مرة واحـدة وبعدها لن تسلوها .. انها منعشة .. منعشة جدا ..

وصاح سعيد فى وجهه ...

ـ أمك تموت .. أتسمعنى .. أفق .. وبعدها عد لسكرك كما تشاء فلن يعوقك أحـد .. أسرع وارتد ثيابك فربما رأتك وماتت راضية .. خدعتها الايام فيك .. ولا بأس من أن تمـوت بخدعتها ما دام هـذا يحقق لنفسهـا الاطمئنان .. قم ...

ومد يده يجـذبه فى خشـونة .

وحمدى يحملق فيه بين اليقظة والسكر لا يصـــدق ولا يكذب ولا يستطيع ..
وجره الى دورة المياه جرا .. وهنـــاك أحنى رأسه تحت الصنبور وأطلق المياه قوية فوقه وهو يقول فى غيظ ..

ـ سمعتهم يقولون أن هذا يفيد ..

ومن تحت الماء المتدفق جاءه صوت حمدى يسأله ...

ـ من قال هذا ؟ حمار من قال هذا..

وأخيرا رفع سعيد رأس أخيه وراح يجففه ويمسح عن وجهه .. وهمس له فى ضراعة ..

ـ أرجوك أن تسرع .

وفى بطء قاتل راح حمـدى يرتدى ثيـــابه ولا يتكلم ولا يرفع عينيه الى أخيه ..

وفى طريق خروجهمـا توقف حمدى يسأل خادمه عن الفتاة فجذبه أخوه من ذراعه وقال للخادم .

ـ لاحاجة بك الى ارشادها للطريق .

واستوقف عربة . وصـــاح سعيد بالسائق :

ـ انطلق بكل سرعة الى طنطـــا . الاجر معروف واسرع ..

وانطلقت العربة .. وخيم عليهمـــا صمت أسـود .. كانا يستقبلان الموت وكان الطريق طويلا .. لم يوجـــه الى أخيه كلمـــة .. ولم يحدثه أخوه فى شىء .. كانت نظراتهما تصطدم ثـــم تشيح .. وتطرق .. وأخيرا أشرفا على مدخل القرية ..

وترقرقت الدموع فى عينى سعيد.. واضطرب حمدى وأشاح ثم سأله ..

هل الحالة خطيرة الى هذا الحد ؟

لم يجب ســـعيد .. كانت الدموع تملأ عينيه وكان يجتهد ليحبسها . . ولم يكرر حمـــدى سؤاله وأطرق ينظر تحت قدميه ...

وفجأة صاح سعيد بالســـائق وهو يشير اليه .. يمينك عند هؤلاء القوم.

ونظر حمدى .. كانت المقابر عـلى يمينهم وكان هناك جمع كبير من الناس وتمتم حمدى :

ـ أتكون هى ؟

وفتح سعيد باب العربة قبل أن تقف يتعجل النزول .. ونزلا .. واستقبلهما المشيعون وعلى وجوههم أبلغ تعبير لحزن الانسان على مصيره ..

وكان أول القادمين اليهم عمدة القريـة .. لم يبدأ بسـعيد .. ثم يبدأ بالابن الاكبر .. ولكنه احتضن «الباشمهندس» يمطره بعبارات التعزية .. ويطلب له من الله السلوى والصبر الجميـــل .. وكذلك فعل الجميع .. الجميع بـــلا استثناء حتى أقاربه .. تركوه واندفعوا الى أخيه .. الى حمدى يعزونه فى أمه .

ووقف سعيد جانبا ثم تقدم الى القبر .. تقدم اليه وحده .. وتبعه ابن عمه. وقف الى جانبه يتمتم بكلمـــات غـــير واضحة .. ونظر خلفه فاذا بالناس وقد التفوا حول أخيه ... وهو واقف بينهم عالى الرأس ينظر ناحية القبور ..

كان كل شىء قـــد انتهى بالنسـبة لأمه .. ســكنت قبرها .. وقام أهله بما يجب وأسرعوا بها خوفا على جثمانها من شرور هذا اليوم الحار ...

وقال له ابن عمه ...

ـ ماتت بعد ركوبك القطار بدقائق..

وهز رأسه ومد يده يمسح دموعه ..

ثم تقدم خلف جمع المشيعين وساروا جميعا يتقدمهم أخوه الى القرية ·· واخترقوا طرقاتها·· وأقبل أهلها نساء ورجالا وصغارا على أخيه يعزونه بدموعهم ويترحمون على أم الباشمهندس ·· كانت القرية كلها حزينة على الفقيدة ··

وهناك أمام دارهم وجد كل شيء معد ·· قام أهل القرية من أهله ومن غيرهم بالواجب ·· وتقدم اليه الحاج متولى شيخ البلد وانتحى به جانبا وهمس له :

ـ أرجو أن تكون راضيا ·· لقد أعددنا كل شيء ليناسب مقام « الباشمهندس » فسيحضر المأمور والاعيان ليقدموا له العزاء ·

وانتفض غضبه فى صدره ·· ولكنه تماسك وسأل الرجل :

ـ وكم تكلف كل هذا ؟

وربت الرجل على كتفه وقال :

ـ خمسة عشرا جنيها ·· البركه فى الباشمهندس ·· كلنا لها يا سعيد ··

فأطرق قائلا :

ـ نعم·· البركة فى الباشمهندس· البركة كلها فيه ياحاج !!